الفصل الخامس والثلاثون

الرحلة العلمية في الدير البحري

ثم نتجه إلى الغرب قاصدين معبد الدير البحري الواقع في نهاية هذا الوادي فنرى على يميننا بالقرب من الطريق مقبرة كان بها رئيس كهنة أمون وجملة كهنة مصرية معها كتب قديمة ونحو خمسين تمثالًا من تماثيل أوزيرس وكثير من الصناديق المثلثة «أي ثلاثة صناديق داخلة في بعضها» وكلها في غاية الزخرفة وهي من العائلة الحادية والعشرين والذي إكتشفها هو المعلم جريبو مدير المتحف المصري سابقًا وكان ذلك في ١٣ فبراير سنة ١٨٩١ ولما توجهت لرؤية هذا المكان في يوم ٢٨ يوليو سنة ٩٤ رأيت بئرًا بلغ عمقها ١٥ مترًا يتصل بها سرداب يتجه إلى الجنوب فحررت قياسه فبلغ ثمانين مترًا ثم ينتهي برواق منحوت في الحجر وهو الذي كان به هؤلاء الكهنة.

فإذا إتجهنا إلى الغرب رأينا فى آخر الوادي على اليسار أعني في جنوب الدير البحري وهدة بسيف الجبل كالدرجة مبسوطة كان بها ذلك الكنز الثمين الذي عثر عليه محمد احمد عبدالرسول أحد أهالي القرنة ولشهرة هذا الكنز في كتب الإفرنج آثرنا تلخيص خبره إقتطفناه من كتاب المعلم والس الإنكليزي ومن أفواه بعض الثقاة وهاك بعض ما قاله المعلم المذكور إن محمد احمد عبدالرسول أحد أهالي القرنة كان إكتشف على خبيئة كبيرة بها توابيت فرعونية كثيرة على أغلبها خانات ملوكية تدل على أسماء الملوك أصحابها وإن هذا الرجل السعيد الذي لعب زهر بخته في طالع الإقبال كان ماهرًا في صيد الأنتيكات وإقتناصها من كناسها ولما أشرقت له شمس هذا الكنز الثمين كاد أن يطير فرحًا لكن لم تمض عليه برهة زمانية إلا وإنقلب سروره حزنًا لأنه أيقن بعجزه عن نقل هذه التوابيت الملوكية المجسمة فعمى مكانها وعاد إلى منزله وصار يضرب أخماسًا لأسداس وأسلمته الوساوس إلى سلطانها والهواجس إلى شيطانها وأخذت الحيرة تحوك في صدره ثم فاءله عقله فأطلع إخوته وإبنه على جلية أمره فإنطلقوا ليلًا إلى الكنز وكشفوا عن المكان ونزلوا فيه بعد ما أوقدوا مصابيحهم وسلبوا منه ما أرادوا ثم خرجوا منه وعموا مكانه ثانيًا وصاروا يترددون إليه في كل حين ويختلسون ذخائر الملوك والأواني المقدسة وأدراج البردي

والفصوص وكل طرفة فريدة في بابها وكل غالي القيمة خفيف الحمل يخفونه في عيابهم وتحت ثيابهم فكانوا كما قال الشاعر

يمرون بالدهـــنا خفافًا عيابهم ويرجعن من دارين بجر الحقائب

وبقوا على ذلك دهرًا طويلًا يتممون خراب هذا الكنز ويسلبون ذخائر الملوك إلى أن فشا أمرهم بإنتشار تلك النفائس في أوربا حيث دوت شهرتها وتداولتها الأيدي وتنبه لها علماء الآثار في كل مملكة لأنهم كانوا أيقنوا أن مثل هذه الأشياء الملوكية يعز وجودها ويندر العثور على مثلها وكان المعلم كمبيل الضابط الإنكليزي تحصل كغيره على كتاب من كتب ذلك الكنز فبادر بتقديمه إلى المعلم مسپرو مدير مصلحة الآثار المصرية ليطلعه عليه وكان وقتئذ في أوربا فأول ما وقع نظره عليه أكبره وعلم أن مثله لا يكون إلا في مقابر الملوك فأسرع الكرة إلى مصر ليستطلع الخبر ويستقصي الأثر وبمجرد ما وصل إليها وجه نحو الصعيد حتى أتى الأقصر وأخذ يستنشق الأخبار ويستلفت الأنظار حتى أخبره أحد سائحي الإفرنج أنه إشترى من عائلة مُحَمَّد أحمد عبدالرسول بعض أشياء ملوكية فبادر بإخبار مديرية قنا وصار القبض على المذكورين وإيداعهم السجن وجرى التحقيق نحو الشهرين لقوا فيهما شدة و بأسا لكنهم تجلدوا وصبروا على ما أصابهم وجحدوا بالكلية أمر هذه اللقية وتبرؤا من جميع ما نسب إليهم فأجرت المديرية كل ما قدرت عليه من التهديد والإرهاب وكل ذلك لم يجد ثمرة فأطلقت سراحهم بعد معاناة الإبن على يد المرحوم داود باشا المدير ثم وقع فشل وشقاق بين الإخوة وتأجج وهج الشر بسبب هذه اللقية ونفخ المفسدون في نار الفتنة حتى كاد أن يقع بينهم ما لا تحمد عقباه فخاف مُحَمَّد أحمد عبدالرسول على نفسه إذ كان في زمن الإستبداد وعلم أنه غير ممكنه التصرف في شيء بعد الذي حصل له من الحكومة ومن إخوته وإحتال عليه بعض الناس وإستمال عقله فجنح إلى فض المشكل وقطع الألسنة فأرسل إلى المديرية ونظارة الأشغال تلغرافًا أخبرهما بصريح الحالة وأرسلت المديرية تلغرافًا إلى مصلحة الآثار تخبرها بذلك فعينت من طرفها إميل بك بروكش وأحمد بك كمال وغيرهما فسافر الجميع من مصر في أول شهر يوليه سنة ١٨٨١ إفرنكية وتزلوا بالأقصر وأحضروا مُحَمَّد أحمد عبدالرسول فأحضر لهم بعض الأوراق البردية والأنتيكات التي كانت بمنزله بعد ما أطلع المديرية على الكنز ولما فتحوه وجدوه عبارة عن حفرة يبلغ عمقها أربعين قدمًا تفضي إلى دهليز غير منتظم يبلغ طوله مائتين وعشرين قدمًا ينتهي برواق مربع طول كل ضلع منه خمسة وعشرون قدمًا مترعًا أي مملوأ بأكفان الموتى وأجسامهم المحنطة المودوعة في التوابيت

بعضها كان مطليًا بالذهب وكشطت طليته ووجدوا كثيرًا من الأواني الصينية والخشبية وأوعية من الصفر أو التوج المعروف الآن بإسم البرونز ثم قدور الكانوب «التي كانوا يضعون فيها أحشاء الموتى» وكاسات من الفرفورى وخيمة مصنوعة من جلد الغزال وغير ذلك من الأشياء الملوكية وأنعمت عليه حكومتنا السنية بمبلغ خمسمائة جنيه إنكليزي ذهبًا وباشرت رجال المصلحة إخراج هذه الأشياء ونقلها إلى النيل وشحنها في السفن إلى قرية الأقصر وبين العمل على ذلك مدة أسبوعين ثم شحنوها في سفينة بخارية إلى المتحف المصري وكان وقتها في بولاق وبالتحري علم أن أيدي اللصوص سطت على أمتعة الملك طوطوميس الثالث كما سطت على أمتعة غيره من الملوك.

وقال مسپرو إن الذي وضع هؤلاء الملوك وما معهم من التحف في هذا المكان ونقلهم من مقابرهم الكائنة في بيبان الملوك وغيره هو «أ أپوث» إبن الملك شيشاق الذي كان قبل الميلاد بنحو ٩٦٦ سنة لما خشي عليهم من سطوة اللصوص الذين قوي حزبهم في ذلك العصر حتى كان يمكنهم مقاومة الحكومة.

وقال المعلم والس في كتابه والأسف كل الأسف من أن هذا الكنز لم يقع إلا في يد أجهل الرعاع الذين تاجروا فيه غنيمة باردة ويا حبذا لو كان إكتشافه على يد بعض الناس المتنوّرين الذين يعرفون قيمته حتى كانوا لا يتصرفون في شيء منه أقول نعم إن مُحَمَّد احمد عبدالرسول قد أساء في العمل حيث فتح بعض التوابيت وأخذ ما بها من الأشياء الثمينة وكان الأحرى له أن يسلمها إلى مصلحة الآثار وهي تكافئه بأضعاف ما أخذ منها وله جزيل المنة أو يبيعه لها فتشتريه منه بكل ممنونية لكن لا أدري ما معنى تأسف حضرة المعلم والس لعله أسف على إكتشافه بمعرفة الوطنيين ولعله كان يودّ أن يكون ذلك على يد الأجانب المتنورين حتى كانوا يستخلصونه لأنفسهم وينقلونه إلى بلادهم أو يبيعونه إلى الحكومة المصرية بالأثمان الطائلة وهيهات إن فعلوا أما أنا فآسف على الأشياء التي تبددت وتفرقت في كل مملكة من بلاد الإفرنج وكنت أود لو بقي هذا الكنز وغيره مستورًا في مكانه إلى أبد الآبدين.

ودهر الداهرين لا يراه الجهلة ولا المتنورون حتى يبلى في مكانه وهاك جدول توابيت الملوك التي وردت في المتحف المصري بعد السرقة والتبديد.

«العائلة السابعة عشرة»

تابوت وجسم الملك سوكن إن رع

«مرضعة الملكة نفرت آرى رع وكان فيه مومية ملكة تدعى أن حابي.

«العائلة الثامنة عشرة»

تابوت وجثة الملك أحميس الأول

« « الملكة أحميس نفرت أرى

« « الملك أمنحتب الأول

« « الأمير سأأمن

« « الأميرة سأأمن

« « الكاتب سانو رئيس الخاصة بمنزل الملكة نفرت أرى

جثة زوجة الملك ساث قامس

تابوت وجثة بنت الملك مشنت تم هو

«أم الملك أعق حتب

«الملك طوطوميس الأول الذي إغتصبه بيناتم

«وجثة الملك طوطوميس الثاني

« « « « الثالث

« « شخص مجهول الإسم

«العائلة التاسعة عشرة»

جزء من تابوت الملك رمسيس الأول

تابوت وجثة الملك سيتي الأول

« « « رمسيس الثاني

«العائلة العشرون»

جثة الملك رمسيس الثالث في تابوت نفرت أرى.

(العائلة الحادية والعشرون)

أم الملك المسماة ناتامت

تابوت وثنة مزااهيرنا رئيس كهنة أمون

« « پاناتم الثالث رئيس كهنة أمون

« « تات فتاح عنخ قسيس أمون

« « الكاتب نب زاني

« « الملكة مات قرع

« « الأميرة أوستم شبك والأميرة نازي خنسو

وكلها نقلت الى المتحف المصري وفي سنة ١٨٨٣ مسيحية ظهرت رائحة كريهة في تابوت الملكة مشنت تم هو فدفنت وفي سنة ١٨٨٥ ظهرت رائحة كريهة في تابوت الملكة أحميس نفرت أرى فدفنت أيضا ومثل ذلك حصل في جثة الملك سوكن إن رع وبهذا الإكتشاف المهم ظهر إلى العيان جسم رمسيس الثاني أي الأكبر الذي بقي محجوبًا لا تراه العيون نحو ثلاثة آلاف ومائتي سنة كباقي كبار الملوك الفاتحين مثل طوطوميس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثالث وغيرهم من فراعنة مصر.

وفي ٢٨ من شهر يوليه سنة ٩٤ توجهت إلى الأقصر وأحضرت مُحَمَّد أحمد عبد الرسول المذكور وتلوت عليه جميع ما كتبته في هذا الكتاب من خبر اللقية وسألته عما إذا كان هناك شيء يخالف الحقيقة فأجابني أن جميع ما هو مذكور صحيح لا مرية فيه ثم توجهنا سوية إلى قرية القرنة وأطلعني على مكان اللقية فإذا هو في بقعة لا يتصور العقل أن يكون بها شيء.

أما الدير البحري فهو من بناء الملكة حتزو المعروفة على الآثار باسم (حعت شبسو من العائلة الثامنة عشرة) جعلته مرتكزًا على شاهق من الجبل قائم كالجدار تقريبًا

وفي ناحيته الشرقية طريق مساوك صعب الارتقاء يفضي إلى الوادي المعروف باسم بيبان الملوك وسيأتي الكلام عليه في الفصل التاسع عشر و بالتأمل في جميع جدر المعبد نجد عليه . خراطيش أي خانات ملوكية متنوعة توجب حيرة المتأمل لأن كل من رآها ظنها أسماء لملوك كثيرة

مع أن الأمر بالعكس إذ جميعها أسماء وألقاب لهذه الملكة التي تلقبت بجملة ألقاب مدة حياتها حيث إشتركت في الحكم مع أخيها طوطوميس الثاني وصارت من بعده وصية على أخيها القاصر طرطوطوميس الثالث فكانت تحكم باسمه ولما بلغ أشده أشركته في الحكم مدة حياتها فكانت تغير ألقابها حسب الأحوال والظروف فلذا صار لها جملة عناوين وأسماء ملوكية.

أما وضع هذا المكان فغريب جدًا حتى أن كل من رآه لم يظنه معبدًا لمخالفته للأصول التي إتبعها القوم في بناء معابدهم وكان أمامه صفان من أصنام أبي الهول قد درست الأيام هجمعالمها ثم مسلتان لم يبق منهما غير جلسة صارت جذاذًا.

وهذا المعبد عبارة عن جملة حيشان كل واحد يعلو عن الذي قبله بينها مجازات منحدرة إلى الشرق وآخرها متصل بالجبل و بناؤها بالحجر الأبيض الجيري ولم يبق منها الآن إلا بعض جدر والسبب في ذلك هو أن الحجارة والجيارة تعودوا من قديم الزمان على أخذ أحجارهم من مباني العصاصيف أو العساسيف لقربها منهم فإن لم يجدوا مطلوبهم بها تحولوا إلى معبد الدير البحري فكان ذلك سببًا في بقاء تلك الأطلال إلى الان ويقال أن الذي هندس بناءه وزينه بالرخام والمرمر كان رجلًا معماريًا ماهرًا يدعى سنموت فأحبته الملكة لنشاطه وصارت ترقيه إلى أن جعلته رئيس كتاب أشغالها ويظهر أن هذا المعبد بقي بعد صاحبته مهجورًا

إلى أيام العائلة الثانية والعشرين ومن ثم إتخذوه مدفانًا لموتاهم فقد وجد في أحد أروقته المرسوم به صورة هاتورفي هيئة بقرة ترضع الملكة المذكورة) أجسام محنطة موضوعة فوق بعضها إلى السقف والطبقة الأخيرة أي العليا كانت من زمن اليونان والتي قبلها أي التي أسفل منها أقدم منها وهكذا أما الطبقة الأولى فمن مدة العائلة السادسة والعشرين فإذا أتى الإنسان من الشرق أعني من الجهة المنخفضة للمعبد رآى كثيرًا من اللوحات الحربية متفرقة على تلك الجدر المتهدمة فلذا يعسر علينا أن نجزم بأن لهذه اللوحات رابطة ببعضها لم ااعتراها من التلف والدمار ففي أحدها أي في الرواق الشرقي صورة الجنود المصرية وهي سائرة تحمل سلاحها يتقدمها النفير والضباط و بيدهم أغصان الأشجار والبيارق والأعلام التى أياديها خرطوش الملكة حتزو ولاريب في أن ذلك عبارة عن عودة العساكر المصرية إلى الأوطان بعد نصرتهم في غزواتهم وعلى بعد نحو مائة متر من هذا المكان إلى الغرب نجد فسحة مستطيلة مرتفعة عن مستوى الأرض بها أحد وعشرون عمودًا منهدمة ما عدا البحري منها يظهر من حالها أنها كانت إيوانًا و بجدارها الغربي و

الجنوبي صورة البحر و به السمك ظاهر والعساكر صفوف على شاطئه (لعله البحر الأحمر) و كأن أهالى بون تركت منازلها ذوات القباب البيضاء وأتت بمحصول أرضها وصنائعها فترى بعضهم يكون البخور ويجعله أكمات كصبرة الحنطة وبعضهم يحمل أشجارًا بصلايتها ولجلودهم وسلاحهم وثيابهم منظر جدير بالنظر إليه وكأن الأسطول المصري رسى على تلك السواحل ثم ترى كيفية شحن السفن وترتيب طرود البضائع والخوابي والجرار والحيوانات كل نوعٍ في مكانه ثم سير السفن مع بعضها بالأشرعة والمجاذيف ثم تراها كأنها وصلت إلى مدينة طيبة وصار إحصاء جميع ما بها وهنالد ترى سير القردة المعروفة باسم سينوسيفال والنمور والزرافات والثيران ذوات القرون القصيرة وجميعها يمشي واحدًا واحدًا ثم السلاسل الذهبية والعقود والأساور والخناجر والبلط والمعبود أمون حاضر يشاهد ذلك ويهني الملكة بما فعلته وتراها جالسة على كرسيها ولها لحية مرسلة كالرجال إشارة إلى أنه كان لها عزم الرجال أرباب الصولة وقال بعضهم كانت الديانة عندهم تحرم رسم الملكات الحاكمات إلا باللحاء.

وفي أحد الأروقة جهة الجنوب صورة سفن مصرية تجري في النيل وتشق عبابه وفي أسفل اللوحة جنود مصرية تسير لكن لا نعلم هل كان جميع ما ذكرناه إرسالية واحدة أم جملة إرساليات كما أسلفنا وبالقرب من هذا المكان أنقاض كثيرة خلفها باب يفضي إلى رواق به رسم له لون زاه نضر يسر الناظرين وعلى كل جانب من الرواق أو المجاز الذي في آخر الهيكل صورة الملكة حتزو ترضع ثدي المعبودة هاتور المصورة في هيئة بقرة حسنة الشكل كأحسن بقرة أخرجها قلم الرسم المصري.

وترى في آخر المعبد تقريبًا أعني خلف الباب المعقود بحجر الجرانيت لوحة ثانية أوضح بيانًا من الأولى لكن لم يبق بها غير آخرها من أسفل يعلم منها أن الملكة حتزو أرسلت جندها إلى بلاد بون (بلاد اليمن والحجاز) الشهيرة بالعطر و الأشجار ذوات الرائحة الزكية والذهب وخشب الأبنوس والمحصولات المشغولة لتستولي على أموال تلك البلاد كي تقدمها هدية إلى معبد طيبة ويظهر أن هذه التجريدة الصغيرة لم تصادف في سيرها مشقة ولا عناء لأن سكان تلك البلاد أتت طوعًا أو كرهًا صحبة الأسطول المصري كي تقدم إلى هذه الملكة خالص عبوديتها.

وفي أوائل سنة ١٨٩٤ مسيحية أجرى المعلم نافيل الحفر في الدير البحري (وهو أحد

علماء الآثار المرسلين إلى مصر من طرف جمعية الآثار المصرية التي ببلاد الإنكليز) فانكشف أماكن أثرية مهمة في الجهة الشمالية من المعبد ولما توجهت لزيارتها في ٢٨ يولية سنة ٩٤ وعزمت على أخذ وصف ما بها ودرجة في هذا الكتاب أخبرني حسن أفندي حسني مفتش آثار الأقصر والقرنة أن مصلحة حفظ الآثار أعلنته بأنه لا يمكن أحدًا من كتابة أو ترجمة شيء منها إلا من بعد نقل ورسم ما بها بمعرفة المعلم المذكور إذ هو المكتشف لها فلذا إكتفيت بذكر وصفها العام بدون تعرض لذكر ما بها.

أما وصفها العام فهو أولها رحبة واسعة بها بواكي من الجهة الشمالية والغربية فقط محمولة على عمد جيعها من الحجر الجيري و لعرشها كرانيش بارزة لطيفة وعدد العمد التي في الشمال خمسة عشر عمودًا خالية من الكتابة وعدد العمد التي جهة الغرب اثنا عشر عمودًا لها شكل كثير السطوح تحمل سقفًا ملونًا بالأزرق به صورة النجوم بلون أصفر وجميع نقوش الجدار الغربي بديعة اللون والصنعة وهي صورة المعبودات وما يهدى إليهم من القرابين وفي الجنوب من هذا المكان إيوان به إثنان وعشرون عموداً مربعًا كانت تحمل سقفًا مثل الذي قبله عليها نقوش دينية وعلى الجدار الغربي تصاوير وأشكال تخبرنا بكيفية حمل وولادة وتربية الملكة حتزو صاحبة هذا المكان وأن المعبودات كانت بشرت أمها بها وغير ذلك فعلى هذا تنقسم نقوش الدير البحري إلى قسمين قسم تاريخي وقسم ديني والله أعلم وإلى هنا إنتهى وصف هذا المعبد بوجه الاختصار.